د. مُراد هوفمان

الإسلام في الألفية الثالثة
ديانة في صعود

تعريب

عادل المعلم   يس إبراهيم

مكتبة الشروق

المحتويات

الموضوع	الصفحة
* مقدمة	٧
* مفتون ـ الغرب المحيِّر (الألمان).	١٧
* الشرق المثير للتساؤل.	٣٥
* سنوات طويلة من الغضب.	٦٣
* وسائل الإعلام تحت المراقبة.	٧٩
* عن الحقوق الشقراء وغيرها.	٩١
* ديمقراطية وشورى قراطية.	١٠٥
* متساوو الحقوق أم سواسية؟	١٢٧
* لماذا محمد؟	١٥١
* عيسى يُفرق ـ عيسى يوحد.	١٦٧
* لا تفرقة على أساس اللون.	١٨٥
* ماذا يريدون هنا؟	١٩٧
* ماذا يجب أن يتغير؟	٢٠٩
* طالبو إحسان أم شركاء؟	٢١٧
* إسلام صنع أمريكا.	٢٣١
* ماذا سيحدث إذا أتوا فعلاً ؟	٢٤٣
* مراجع أخرى	٢٥٩

مقـــدمة

شعار : «إننى لا أستطيع إلا أن أقرر ـ بصفتى طبيبًا ـ أن الإنسانية غارقة فى أزمة رهيبة».

(فريدريش ديرنمات NZZ بتاريخ ٦/ ٤/ ١٩٩٠)

لقد تمكنت الألفية الجديدة منا. فبعد الاحتفالات والغبطة وكل ما صاحب قدوم الألفية من إثارة، وجدنا أنفسنا نواجه حياتنا اليومية المعتادة فى اليوم الأول من يناير عام ٢٠٠٠. ألم يحدث أى شىء؟ هل كانت مشكلة الصفرين فى الحاسبات الآلية هى مشكلتنا الوحيدة؟ ألا تعانى جميع الأنظمة المسيطرة على حياتنا ومجتمعاتنا من الأزمات؟ هل المستقبل هو ما كان يومًا ما؟

لم يكن العالم يفتقر إلى مؤشرات دالة على الأزمة التى تعانى منها مجتمعاته كافة ونحن على أعتاب ألفية جديدة، هذه المؤشرات التى ساهمت وسائل الإعلام المختلفة فى تأكيدها وتضخيمها حتى أصبحت بمثابة رعب هستيرى من نهاية العالم وفناء الإنسان، وتخَوُّف من الألفية الجديدة، وتأهب لما ستأتى به هذه الألفية من شرور.

ولكن سبقت هذه المخاوف بسنوات طويلة حالة غريبة انتابت المجتمعات الغربية، هى حالة اللا مبالاة حيال الكوارث المتوقعة، هذه الحالة من اللامبالاة ترجع إلى شعور بالإحباط والانهزامية وليس بالتفاؤل.

لقد استبدل العالم حالة جديدة من الاسترخاء بحالة من الذعر غير المعقولة من نهاية العالم المرتقبة ـ والتى كانت حتى وقت قريب ينفرد بالتحذير منها أصحاب الثقافة الخضراء، أى أنصار البيئة.

فمن ذا الذى انتابته مخاوف ليلة رأس السنة لعام ١٩٩٩ مع انتظار قدوم أول أيام عام ٢٠٠٠ مثل: استمرار سريان قانون الطوارئ، واحتمال وقوع حرب نووية بين القوى النووية، والتدمير الهائل للغابات وموت الكثير من أشجارها، وثقب الأوزون وتأثيره على التغيرات المناخية، وتكرار مأساة تشيرنوبل، وزيادة درجة حرارة الأرض، والإنسان الزجاجى، وأمراض مثل الإيدز وجنون البقر، واشتراك قوات الدفاع الاتحادية فى معارك حربية؟

لقد واكب خفوت رومانسية أنصار البيئة تضاؤل المخاوف على هذه البيئة وخمول سياسى: لقد أصبح المأزق الاقتصادى والاجتماعى والأخلاقى ـ هذا إن وجد الأخير ـ كيف يكون الأمر فى ألمانيا على غير هذا النحو؟ إنها أزمة مريحة تتناسب مع تناول البيرة والخمور.

لقد استبعد هذا المنتج الواعد بإمكانات استخدام هائلة «حالة ترقب لنهاية العام» قبل أن يطرح فى الأسواق.

لم يتم احتفال المسلمين بالألفية الجديدة بتناول الخمور، ولكنه اتسم بهدوء أكثر عما حدث فى الغرب. فلقد صادف قدوم الألفية الثالثة أن يكون هذا فى وسط العام ١٤٢٠ للتقويم الهجرى[١]. كما أن قليلا من المسلمين يهتمون بأسرار الأرقام. ولا يفترض أصلاً أن يكون لقدوم ألفية جديدة تأثير بالغ على المسلمين، حيث إن الساعة يمكن أن تقوم فى أى وقت، أى أن ينتهى العالم فى أى لحظة[٢].

كما أن كتابة التاريخ الإسلامى تهتم بتسمية كل قرن باسم شخصية كان لها تأثيرها البالغ فى هذا القرن بوصفه مجدداً. فأطلق اسم الفيلسوف أبى حامد

---

(١) لقد انطلق المسلمون فى تقويمهم من عام هجرة الرسول من مكة إلى المدينة (١٠ـ ٢٢ سبتمبر ٦٢٢) بناءً على اقتراح الخليفة الثانى عمر.
ولقد صارت بداية أول عام هجرى ـ وهو سنة قمرية ـ يوم ٦ من يوليو عام ٦٢٢ بأثر رجعى. (انظر G.S.P Treemann - Grenville: The Islamic and Christian Calenders AD 622 - 2222 (All 1 - 1650) (التقويم الإسلامى والتقويم المسيحى) Garnet: Reading (Uk) 1995. p.4.

(٢) القرآن الكريم: الآية ٦٣ من سورة الأحزاب، الآية ١٨ من سورة الشورى، الآيات ٤٢ـ ٤٦ من سورة النازعات.

الغزالى (توفى عام ٥٠٥ هجريا ـ ١١١١ ميلادي) على القرن الخامس الهجرى. وحمل القرن الثامن اسم الفقيه ابن تيمية (توفى ٧٢٨هـ ـ ١٣٢٨م)، وسمى القرن الثانى عشر بقرن شاه ولى الله، المصلح الهندى (توفى ١١٧٦هـ ـ ١٧٦٣م)، وكذلك اسم محمد بن عبد الوهاب مؤسس الوهابية فى السعودية (توفى ١١٨٧هـ ـ ١٧٨٧م).

وعرف القرن الرابع عشر بقرن الشيخ محمد عبده المجدد المصرى (توفى ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م).

لقد تقبل المتصوف الهندى أحمد سيرهند (توفى ١٠٣٤هـ ـ ١٦٢٤م) عضو الطريقة النقشبندية فى حياته، أن يحمل اللقب الشرفى غير الرسمى «مجدد الألف الهجرى الثانى»[٣].

لا يمكننا أن نستنتج مَن شخصية المجدد المرتقبة؟. لقد قال الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على يقين بأن المستقبل والغيب لا يعلمهما سوى الله ـ: «إننى مباه بكم الأمم يوم القيامة». «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرة على الحق لا يضرها من خالفها»[٤]. ولكن حذر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن كل جيل سيكون أقل تمسكًا بعقيدته من الجيل الذى سبقه[٥]. «لن يأتى زمان إلاَّ والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»[٦]. وسيكون من قرب علامات الساعة حدوث مثل هذه الظواهر: التى جاءت فى أحاديث كثيرة منها: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا»[٧]. وسينقسم المسلمون على أنفسهم ويتشرذمون فى مجموعات تفوق فُرقة اليهود والمسيحيين، كما جاء فى الحديث:

---

(٣) لقد قام بدور الوسيط بين الفرق الصوفيةالمتطرفة وبين من يرفضونها على أساس المذهب الحنبلى. . انظر عبد الحق أنصارى، ونظرية الشيخ سيرهند عن وحدة الشهود فى Islamic Studies 37/ No. 2 Is-lamabad 1993.

(٤) البخارى جزء ٦ رقم ٥٠٤ / مسلم ٤٧١٥ ـ ٤٧٢٢.

(٥) البخارى جزء ٨ رقم ٦٨٦ / النووى ٤٠٩.

(٦) البخارى جزء ٩ رقم ١٨٨ النووى ٩٢.

(٧) البخارى جزء ١ رقم ٨٠ وجزء ٨ رقم ٨٠٠.

«افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة»[٨].

لم يشهد الدين الإسلامى فترة ازدهار وذروة تحقيق ذاته بعد انقضاء فترة توهجه الأولى وبداياته تحت القيادة الكاريزمية لرسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا فى لحظات نادرة. فحتى الفترة الذهبية، فترة الخلفاء الراشدين التى امتدت من عام ١١ إلى ٤٠هـ (٦٣٢ـ ٦٦١)، نلحظ فيها عند الفحص والدراسة الدقيقة ملامح يوتوبيا تعليمية. وهذا لا ينفى بطبيعة الحال عظمة وتوهج هذه الفترة.

على أى حال لم يشهد الإسلام تحولاً له، وتحقيقًا لجوهره فى الحياة العملية، لا فى عهد الأمويين الذين حكموا من دمشق حتى عام ٧٥٠[٩] ولا فى ظل حكم العباسيين من بغداد والذى امتد حتى القرن الثالث عشر رغم كل ما فيه من ازدهار ثقافى وحضارى، ولا حتى فى قمة ازدهار الحضارة الإسلامية بالأندلس قبل حلول عام ١٤٩٢[١٠].

بالرغم من أن الإسبان لا يزالون إلى يومنا هذا يصيحون «الله» عندما يقولون «Olé» «أليه».

ينطلق المسلمون اليوم من معرفة مفادها أن العلم والمعرفة لا ينبنيان فقط على أعمال السلف، ولكنهما يشهدان إضافة وزيادة، حتى إن بعض المسلمين يمكنهم ـ عن حق ـ أن يدَّعوا أن معرفتهم بتراث الإسلام وبالقرآن، تفوق معرفة أسلافهم[١١]. ولذلك فهم يتعلمون بكل جدية، خصوصا أن القرآن يأمرهم

---

(٨) [صحيح] أبو داود [٤٥٩٦].

(٩) يتشكك بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين فيما نسب للأمويين من اتهامات بالانحراف عن الإسلام ومخالفة الكثير من قواعده فى الحكم، فهل حدث هذا فعلاً، أم أن هذه الاتهامات ألصقت بهم بفضل الدعاية المضادة لهم والتى أشعلها وقادها العباسيون؟ (تلك المعارضة اقتصرت على ذكر موضوعات دينية لأسباب سياسية بطبيعة الحال).

(١٠) يوفر Jayyusi نظرة جيدة على الحضارة الأندلسية.

(١١) خذ على سبيل المثال الآية الثانية من سورة العلق. فلم يكن أوائل المسلمين يعلمون معنى العلق كما يعرفه المعاصرون اليوم.

بالمعروف وينهاهم عن المنكر لأنهم خير أمة أخرجت للناس[١٢]، وكذلك عندما يخاطبهم القرآن قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١٣].

ولكننا لا نستطيع أن نؤكد بعد انقضاء احتفالية رأس السنة، أن مخاوف الجانبين ـ المسلم والغربى ـ تلاشت تمامًا.

فلا نستطيع أبدًا أن نتفق مع ما تنبأ به فرانسيس فوكوياما بأن نهاية التاريخ تلوح من خلال سيادة الحضارة الغربية فى صورة سيطرة نظام حكمها الليبرالى الديمقراطى، وما يحمله من قيم على العالم كافة[١٤].

لا نستطيع أن ننكر أن العولمة فى المجالات المختلفة الاقتصادية ـ التكنولوچية ـ الأيديولوچية ـ الثقافية، قد أخذت تنمو وتؤتى ثمارها فيما تستهدفه من تحويل العالم إلى «قرية صغيرة».

لكن فى نفس الوقت بدأت الشكوك تنتاب الغرب فيما شعر به من زهو وانتصار بعد انهيار الشيوعية، فهل كان الغرب محقًا فى إحساسه بهذا الانتصار؟

أو لم يتضح بالدليل القاطع والبرهان البين أن القرن العشرين المنصرم، كان أكثر القرون دموية فى تاريخ البشرية، بكل ما شهده من حروب عالمية مدمرة وانتشار الأسلحة القادرة على إبادة الملايين من البشر، ومعسكرات الإبادة وعمليات التطهير العرقى وغيرها من مآسى البشرية؟ وكل هذا يشهده العالم بعد مرور ٢٥٠ عامًا على بداية عصر التنوير ومشروع الحداثة! وتتركز هذه الأعمال الوحشية المهينة للبشرية فى أوروبا «المتحضرة» الشديدة الزهو والفخر بعقلانيتها وإنسانيتها[١٥].

فهل تعانى المجتمعات الغربية من مرض ما؟ أم يتهددها خطر السقوط الأخلاقى كما حدث للبولشفية من قبل؟

---

(١٢) كما جاء فى الآية ١١٠ من سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

(١٣) الآية ١١ من سورة الرعد.

(١٤) فوكوياما (١٩٩٠).

(١٥) لقد شهد القرن العشرون سقوط أكثر من ثلاثين مليون قتيل من الشباب.

لقد ثبت أن نظريات صمويل هنتنجتون بشأن صدام الحضارات الذى لا مفر منه خاصة بين الغرب والإسلام بكافة «أبعاده الدموية»، ما هى إلا صيحة إنذار ذات طبيعة دفاعية فى المقام الأول(١٦).

ومنذ ذلك الوقت، فإنك تستمع دائمًا إلى نغمة تشاؤم لا سبيل إلى تجاهلها عندما يتم استدعاء ذكرى حضارات العالم التى امتنعت عما يسمى بالـ Social Re - engineering، أى بإعادة الهيكلة الاجتماعية والاقتصادية(١٧).

لقد تكون فى الغرب شعور بضرورة وجود قطبين فى العالم، أى هنا وادى السيليكون. . . . وهنا مكة(١٨) ـ كما لو أن العالم لم يتطور منذ أعلن إرنست رينان Ernest Renan يوم ٢٣ من فبراير عام ١٨٦٢ فى الكوليج دى فرانس Collège de France « أن الإسلام هو النفى التام (النقيض) لأوروبا».

لن ينكر معاصر دارس للثقافات والسياسات، أن تطور عالمه ـ أيًا كان موقعه الجغرافى ـ فى القرن الحادى والعشرين سيتأثر ـ إن لم نقل سيكون محكومًا ـ بما سيشهده الإسلام وبما سيؤثر فيه. هل سيقوم العالم الإسلامى بتحديث نفسه؟ أم سيمتثل هذا العالم لأسلوب الحياة الأمريكى؟ أم أن هذا العالم سيستمر فى رفضه للأسلوب الأمريكى فى الوقت نفسه؟ هل سيستمر انتشار الإسلام فى الغرب كما حدث فى الثلث الأخير من القرن العشرين؟ هل سيتم هذا بالوسائل السلمية؟

---

(١٦) هنتنجتون (١٩٩٣).

(١٧) تعد تركيا أوضح الأمثلة. فلقد باءت محاولات أتاتورك ومن سار على نهجه فى تحويل تركيا ـ قسرًا ـ إلى قطعة من أوروبا بالفشل، نظرًا للجذور الثقافية والتاريخية الإسلامية الراسخة ـ فبالرغم من جميع محاولات التغريب، فإن الإسلام يؤدى اليوم دورًا أكبر مما كان يقوم به فى الثلاثينيات فى حياة مصطفى كمال.

(١٨) لا تزال النظرة المتشائمة لضرورة اختلاف الحضارات والثقافات بعضها عن بعض شائعة بين كثير من الدارسين والمهتمين بأفرع العلم المختلفة، ويؤدى هذا إلى مقولات مؤسفة وخاطئة، مثل الحكم العام بأن البلاد الإسلامية غير قادرة على ممارسة الديمقراطية لطبيعتها، كما لا يمكن لهذه المجتمعات أن تتحول إلى مجتمعات مدنية تحمى حقوق الإنسان بسبب بنيتها الثقافية. ويعد بسام طيبى (١٩٩٤) أحد ممثلى هذه المقولة المهينة للمسلمين.

ما النتائج المترتبة بالنسبة للغرب والمؤثرة فيه فى حالة فشل العالم الإسلامى فى القيام بعملية تجديد أخلاقى وإحياء لبنائه ؟

وما النتائج المرتقبة فى حالة نجاح العالم الإسلامى فى أن ينهض من جديد؟ وبالتالى يكتسب قوة جاذبة فى الغرب؟ هل يمكن أن يصبح هذا الدين ـ وهو نظرى وعقائدى ـ بالفعل دينا يسود العالم؟

هل يصبح الإسلام فى هذه الحالة العلاج والشفاء الذى سينقذ الغرب من نفسه؟ وهل سيصبح الغرب قادراً على الاعتراف بالإسلام كدواء يصلح لشفائه، دواء يساعد الغرب على تخطى أزمته وإنقاذ حضارته؟

هذه هى خلفية هذا الكتاب، وهذه هى الأسئلة التى يطرحها هذا الكتاب محاولاً الإجابة عنها.

* * *

يتضمن هذا الكتاب قائمة من المراجع، تبدو كبيرة جدا ومستفيضة، وستجد بها أغلب الكتاب الذين شاركوا فى ا لمناقشات الدائرة حول الإسلام خاصة فى العقود الثلاثة المنصرمة.

لم أستق هذه القائمة من الإنترنت، ولكننى قرأتها كلمة كلمة. وساعدنى فى تحقيق هذا، عملى كناقد للكتب فى مجلة The Muslim World Book Review الربع سنوية.

إننى أدين بالشكر لكتابين هما: «التناقضات الثقافية للرأسمالية» ـ "The Cultural Contradictions of Capitalism» عام ١٩٧٦ لكاتبه Daniel Bell .

لقد شخص Daniel فى هذا الكتاب مساوئ الحضارة الغربية وآلياتها المدمرة.

من الجدير بالذكر أن Daniel Bell كان أستاذاً للعلوم الاجتماعية بجامعة هارفارد.

أما الكتاب الثانى، فهو «صلاة الجنازة على روح السياسات الحديثة» ـ «Requiem for Modern Politics».

وهذا الكتاب يعد دراسة تحليلية دقيقة فى غاية الذكاء لما تتضمنه المجتمعات الغربية من إمكانات رفض قاتلة، بسبب أيديولوچية التقدم والتطور التى تتبناها تلك المجتمعات.

والآراء التى يتضمنها هذا الكتاب ليست نتاج قراءات بالمفهوم الضيق، ولكنها قامت على خبرات معيشية أكثر منها على قراءات فقط.

وساعد على ذلك أننى، منذ اعتزالى من عملى كدبلوماسى فى صيف عام ١٩٩٤، أتجول كمحاضر متنقلاً ـ دون فترات راحة تذكر ـ فى الغرب والشرق، من هلسنكى إلى كوالالمپور، من الرياض إلى لوس أنچيلوس، ومن الخرطوم إلى ليبزج فى ألمانيا، حتى أساعد فى شرح كل جانب للجانب الآخر، ولكى أقيم جسورا من التفاهم بين الغرب والشرق، ولأساهم فى إزالة مشاعر العداء التى يكنها كل طرف للطرف الآخر(١٩).

لقد ظهرت بعض هذه المحاضرات ونشرت فى مجلات متخصصة عن الإسلام مثل الإسلام (ميونخ)، دراسات إسلامية ـ Islamic Studies (إسلام آباد) ـ The American Journal of Islamic Social Sciences (Herndon, Virginia) الجريدة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية.

آفاق Horizons ـ (إنديانا پوليس). اقرأ Iqra ـ (سان چوزيه كاليفورنيا). وكذلك Encounters. (Markfield, Leceister).

لقد استخدمت مادة علمية من هذه المحاضرات، ولكننى لم أنشرها من قبل بشكلها المكتمل.

إن حجم الببليوجرافيا ليس هائلاً ولا يتضمن عناوين أجنبية كثيرة، لكى أثير الإعجاب بى أو أعطى انطباعًا إيجابيًا عنى. ولكن لنعط معلومات يمكن للغير الاستفادة منها، ولكى تعبر عن:

---

(١٩) لقد قمت بإلقاء ١٣٩ محاضرة فى الفترة ما بين منتصف عام ١٩٩٤ ومنتصف عام ١٩٩٩ تدور كلها حول موضوعات إسلامية فى تسعة بلدان غربية وتسعة بلدان إسلامية، كما حضرت ٢٧ ندوة ومؤتمرا كان الإسلام فيها الموضوع الرئيسى.

١ ـ كثافة المناقشات الإسلامية بين ا لمسلمين حول الموضوعات الكبرى فى زماننا، مثل الديمقراطية، وحقوق الإنسان، ودور المرأة. وكيف أن هذه المناقشات تدور بلا أدنى وجود لمحرَّمات ـ (تابو) ـ مسبقة.

٢ ـ زيادة سطوة الموضوع حتى أصبح يفرض نفسه على الدراسات الاجتماعية.

٣ ـ الدور الجديد الذى تؤديه اللغة الإنجليزية حتى فى الحوار الإسلامى، فلقد أصبح للإسلام الآن لغتان رئيسيتان: فاللغة الإنجليزية ينشر بها الآن عن الإسلام أكثر مما ينشر بالعربية، ولذلك أعتقد أن إلقاء نظرة على الببليوجرافيا يستحق هذا العناء.

إننى أقتصد فى الإشارة إلى مقولات محددة، وأفضل ذكر أعمال بكاملها، حتى يكون الكتاب مستساغًا فى أثناء القراءة، ولا يتخذ شكلاً علميًا بحتًا.

كما أننى لم أرمز إلى قول «عليهم السلام» الذى نعقب به على ذكر الرسل: موسى وعيسى ومحمد، كما يفعل المسلمون بما هو متعارف عليه فى الكتب الإسلامية بـ (s) أو (pbuh)[٢٠] (Peace be upon Him)، فهذا أمر بديهى يفعله كل مسلم من تلقاء نفسه.

مراد فيلفريد هوفمان

إستنبول

الأول من يناير عام ٢٠٠٠

---

(٢٠) (S) تعنى صلى الله عليه و سلم و(pbuh) يعنى عليه السلام.

مفتون ـ الغرب المحير ـ (الألمان)

الشعار الأول : حيث تغيب الآلهة تسود الأشباح وتسيطر .

(مقولة لنوڤاليس أحد أدباء الرومانسية)

الشعار الثانى : إن الاعتقاد بضرورة تبنى الشعوب غير الغربية لقيم ولمؤسسات ولحضارة غربية ، لهو أمر غير أخلاقى فى نتائجه . (بالنظر إلى نتائجه وتوابعه)

(صامويل هنتنجتون : «الغرب الفريد» ص٤١)

-١-

إذا أراد المرء أن يتنبأ بالتطورات المستقبلية للغرب وللشرق (الإسلامى) ـ أو أراد على أقل تقدير وصف المقومات التى يتطلبها التطور المرجو ـ فعليه فى بادئ الأمر أن يقوم بعملية حصر للعوامل المتعلقة بهذا الموضوع . عليه أن يبدأ بالسؤال التالى : ماذا يحدث على الجانبين الآن؟ .

أعتقد أن أنسب الناس وأقدرهم على الإجابة عن هذا السؤال هم من يتمتعون بتفكير نقدى سليم ، وأتيحت لهم الفرصة بأن يعيشوا فى الجانبين دون أن يتنكروا لجذورهم الأصلية . أعتقد أن حكم هؤلاء على الوضع الراهن ، ورأيهم لجديران بالإجابة عن سؤالنا عن الوضع الراهن فى الجانبين .

وإننى إذ أقول ذلك ، يخطر على ذهنى هؤلاء الطلبة الزائرون الذين يعودون إلى بلادهم بعد استكمال دراساتهم فى الغرب (هؤلاء يشاهدون بلادهم بنظرة جديدة) وهم بطبيعة الحال غير اللاجئين إلى الغرب سواء لأسباب سياسية أو اقتصادية ؛ إذ أن هؤلاء ـ نظراً لوضعهم ـ لا يملكون إلا إبداء الإعجاب الشديد بالبلد المضيف أو

الاعتماد الكلى عليه، وبالتالى أراهم غير قادرين على ممارسة النقد النزيه أو التفكير بشكل نقدى سليم.

ولتحقيق ذلك، سأقوم بخلق شخصيتين من بنات أفكارى لطالبين مسلمين نمطيين يعيشان فى الغرب حاليًا، وسأقوم بتوجيه الأسئلة إليهما عن هذا الغرب، حتى أصفه من خلال عيونهما. أما فى الفصل التالى، فسأقوم بهذه التجربة مع طالبين أوروبيين ـ هما بطبيعة الحال شخصيتان ابتكرتهما أنا فى خيالى ـ اعتنقا الإسلام فأسألهما عن انطباعاتهما عن العالم الإسلامى. وسأضيف إلى الشخصيتين المتخَيَّلتَين بعدًا إضافيًا من خيالى، فإحدى الشخصيتين اختارت هذا العالم وطنًا لها، أما الأخرى فلا ترى داعيًا لهجرة وطنها الأصلى.

ومن خلال هذه التجربة سنشاهد هذا العالم ـ العالم الإسلامى ـ من خلال عيون غريبة عنه.

أما النتيجة فأعتقد أنها ستكون محيرة.

ـ٢ـ

ينتمى الطالب الأول الذى نستمع إليه، إلى ما يمكن أن نسميه بالإسلام الميلادى، فهو مسلم بالميلاد والجذور والبيئة، أكثر منه مسلمًا بالممارسة، أى ممارسة الإسلام. هذا الطالب طالما حلم بالغرب قبل أن تطأه قدماه. منذ طفولته كان الغرب بتقدمه مثالاً له (كان منذ طفولته يضع تقدميته كمثال يجب الوصول إليه حتى فى فسادها الماركسى).

فلا غرابة إذًا فى أن يحاول تشرُّب هذه الحضارة الغربية التى طالما عشقها، حتى إنك لا تميزه عن محيطه الغربى الذى يعيش فيه.

إننى لأتحدث عن تجربة وخبرة، حيث إننى انتقلت عام ١٩٥٠ وعمرى آنذاك ١٩ عامًا من ألمانيا المقسمة، المهزومة، المحتلة، والمنكسرة إلى: Union College فى نيويورك، فى قلب جنة ما بعد الحرب العالمية الثانية بأمريكا فى قمة ازدهارها، حيث تسيل أنهار من الكوكاكولا و(ميلك شاكس ـ Milkshakes).

لقد كان تأثير أمريكا منذ زمن ـ والآن الغرب بأكمله ـ على المهاجرين من الشباب أشبه بتأثير المخدرات التى تصور لهم مستوى معيشة أفضل. فا لكل يتخيل إمكانية تحقيق أى شيء وكل شيء هنا. هنا فى هذا العالم حيث يجد الأصحاء والمثابرون الفرص العظيمة بمنتهى السهولة، حتى يخيل لهم أنها ملقاة فى الشارع ليلتقطوها.

أما أسباب هذا التصور فواضحة. فالغرب متقدم تكنولوچيا بدرجة عالية جدا. الغرب يعيش بعد اختراعات القرن العشرين ثورته التكنولوچية الثالثة، حيث تنهال الاختراعات التى تقلب صناعة المعلومات رأسًا على عقب.

فالعالم لم يعد هو العالم نفسه منذ اختراع الإنترنت.

أعتقد أن وصف الطالب المسلم ـ المسلم ميلاديا ـ بحكم المولد والبيئة، للغرب الذى يكن له تقديرا كبيرا سيكون كالتالى:

كل ما يتعلق بالتكنولوچيا ـ بما فى ذلك الطب والبيروقراطية ـ يسير على أكمل وجه، حتى إن الإنسان أصبح هو عامل الإزعاج الوحيد والأخير. هذه الكفاءة نجدها تسود كذلك مجالات مثل الاقتصاد والإدارة والتربية. يلتزم غالبية المواطنين بالقوانين ويطبق الدستور بشكل روتينى فى الدولة. فدولة الدستور حقيقة وواقع مطمئن. والحديث عن الرشا قليل جدا، والقوات المسلحة تدين بالولاء التام للحكومة المدنية المنتخَبة، ولا يتعرض أتباع الأديان والمعتقدات المختلفة للسجن أو التعذيب. والدولة تتحمل مسئولية مواطنيها من المهد إلى اللحد. كما تتحمل الدولة مسئوليتها فى المحافظة على البيئة. ونادرًا ما ينقطع التيار الكهربائى أو المياه أو التدفئة. (عند هذه النقطة من وصف الغرب، يرغب المرء ـ بوصفه مواطنا يعيش فيه ـ فى التوقف، حيث يشعر بملل شديد من ذكر كل الأمور التافهة هذه. أما بالنسبة لمواطن من العالم الثالث، فما ذكر ليس من التفاهات بشيء، بل كلها إنجازات يحسد عليها الغرب). فالفرد يقف فى موقع المركز، سواء فى الدولة أو المجتمع أو الاقتصاد بسوقه المشبع حتى التخمة. هذا الفرد يتمتع بأقصى حماية من قبل الشرطة والقضاء ضد أى ظلم يقع عليه أو تعسف يمارَس ضده. كما يقوم الأفراد باختيار حكوماتهم بحرية تامة. العملة ثابتة وكل ما يقوم بشرائه من منتجات وأدوية سليمة وغير مغشوشة، فهناك رقابة صارمة على الجودة. وهنا فى الغرب لا يجد العاطل

عن العمل نفسه مضطرّا إلى مد يده ليتسول. حتى الاضطرابات العمالية لا تتدخل الشرطة لإنهائها!

الفكرة والقيمة السائدة هى الحرية والتحرر. التحرر من الظلم والقهر والخوف والجوع والندرة والرقابة واللوائح، والحياء. هنا تسود حرية إبداء الرأى وحرية التجمع وحرية الاعتقاد وحرية اختيار مكان الإقامة وحرية أداء الخدمة العسكرية. ومن خلال ملاحظاتنا لسوق العمل ـ وكذلك ملابسها ـ يتبين لنا أن العوائق كافة قد زالت من طريق المرأة لتحقيق ذاتها. فالتحرر الجنسى أصبح حقيقة ملموسة. لقد تحررت المرأة تمامًا، والقانون والمبدأ السائدان بين الجنسين هو: ما يهواه المرء فهو مسموح به. ويتضمن هذا بطبيعة الحال الاعتراف بحياة الشواذ حياة مقبولة ومتساوية مع غيرها. لم يصبح الشواذ فى حاجة إلى التستر أو الاختفاء، بل بالعكس يمكنهم اليوم إنشاء تنظيم خاص بهم.

مجمل القول: ينظر طالبنا المسلم المندمج فى الغرب إلى هذا العالم نظرة شديدة الإيجابية، حيث يراه أقصى ما بلغته الحضارة الإنسانية من مراحل وأزهاها، وبالتالى يحق للغرب وحضارته أن يسودا العالم.

ـ ٣ ـ

نجد فى مقابل هذا الطالب فى الغرب نوعية أخرى من الطلبة الأجانب، وهم الذين يمارسون شعائر الإسلام ويرفضون الغرب المذكور سابقًا ـ رغم مميزاته ـ جملة وتفصيلاً، بل إنهم يلعنونه بشكل مطلق، حتى إن المرء كثيراً ما يتساءل لمَ لا يعودون فوراً إلى أوطانهم ليتركوا «الشيطان الأكبر» المكروه منهم لحاله؟[1].

---

(١) النمط الأكثر انتشاراً الممثل لهذا الموقف، هم أعضاء حزب التحرير الإسلامى، تلك المنظمة المعارضة التى تأسست عام ١٩٥٣ على يد الشيخ تقى الدين النبهانى، والتى لها تمثيل قوى فى كل من الأردن والولايات المتحدة. وتتميز بنبذها للعنف، فهذه الجماعة تتوقع أن تجد مشكلات العالم كلها حلاً عن طريق عودة الخلافة التى ألغاها مصطفى كمال أتاتورك وتشكيل نظام إسلامى قوى. إن هذه الحركة تقوم بنشر أعمالها عن طريق «منشورات الخلافة» فى بريطانيا وفى الولايات المتحدة عن طريق TINA (تنظيم الإسلام لشمالى أمريكا).

ونحن نريد الآن أن نتتبع مسار تفكير أحد هؤلاء الطلبة، وهو بطبيعة الحال شخصية متخيَّلة وليست حقيقية. إنه يسوق مسوِّغات منطقية وحججا قوية ومسوَّغة لحكمه السلبى على الغرب، شأنه شأن زميله المغرم بالغرب.

يبدأ هذا الطالب أول ما يبدأ بتوجيه نقده إلى النزعة العقلانية الغربية، والتى يرجع إليها الفضل فى ظهور ما يسمى بـ «مشروع الحداثة»؛ منذ القرن الثامن عشر.

فالتاريخ الحقيقى والفعلى للغرب منذ عصر التنوير، لم يكن تحقيقًا للعقل بقدر ما كان سلسلة متتالية من الفظائع والأعمال غير الإنسانية، مثل: عمالة الأطفال، تحويل قطاعات ضخمة من المزارعين إلى عمال فى قطاع الصناعة وما ترتب على ذلك من أضرار للأراضى الزراعية، تجارة العبيد والتفرقة العنصرية، اشتعال حربين عالميتين مدمرتين، استخدام أسلحة كيميائية ونووية، إرهاب تمارسه الدولة تحت شعارات أيديولوچية كالبولشفية، وكذلك نزعات كالشوفونية الفاشية، وليس آخر هذه الفظائع عمليات التطهير العرقى فى وسط أوروبا كما هو الحال فى كرواتيا والبوسنة وصربيا.

لا نستطيع أن ننفى عن آباء التنوير المسئولية غير المباشرة عن هذا الفشل الفريد لفكرة عظيمة، هى سيطرة العقل على أفراد مستقلين وعلى تصرفاتهم. فمفكرون من أمثال ديڤيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦)، ڤولتير (١٦١٤ ـ ١٧٧٨)، فريدريك الكبير (١٧١٢ ـ ١٧٨٦)، ليسينج (١٧٢٩ ـ ١٧٨١)، وجوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢)، ومن قبلهم مونتانى (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢) وديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) ولوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) وكذلك ليبنتس (١٦٤٦ ـ ١٧١٦). هؤلاء جميعًا لم يكونوا ملحدين ناكرين لوجود إله، ولكنهم كانوا مؤمنين بإله كعلة أولى، ناكرين للوحى، مؤمنين بإله واحد بعيد وليس بصورة الثالوث الإلهى الذى تتبناه الكنيسة المسيحية. اعتمد إيمانهم على ملاحظة الطبيعة وتأملها والتفكير فيها، وليس على التسليم بالوحى. لم يرغب هؤلاء فى إلغاء فكرة عقيدة أو ديانة، ولكن اتجهت جهودهم إلى القضاء على سيطرة الكنيسة على معتقدات البشر وعلى نفوذ الكهنوت.

ولقد استغل بعض التنويريين الإسلام (كعملية التفاف) للإسراع بعملية التحرر

من نير الكنيسة. لقد حقق ليسينج هذا بشكل مناسب من خلال مسرحيته «ناثان الحكيم»[٢] التى كتبها عام ١٧٧٩ التى أبرز فيها مثالية وإيجابية المسلم.

أما ڤولتير، فقام بمحاولة سابقة ـ غير لائقة ـ حيث قام فى عام ١٧٤٢ بكتابة مسرحية «ماهومت النبى الكاذب». لقد أراد من خلال عمله نقد الكنيسة من خلال هجومه على الإسلام[٣]. ولقد كافأه فريدريك الأكبر على عمله هذا بمنحه وسامًا.

أما بالنسبة لأعمال كانط النقدية، فلم تكن ضد الدين بقدر ما كانت موجهة ضد الكنيسة، فلم يدلل كانط ـ ولم يرغب أصلاً فى التدليل ـ على عدم وجود الله فى عمله «نقد العقل» (١٧٨١)، ولكن أراد نفى إمكانية الاعتماد على تصورات ميتافيزيقية تتعدى نقد المعرفة، وبالتالى تتحول حتمًا إلى لعب بالألفاظ كما كان سيقول ڤيتجنشتين. لقد لجأ كانط فى عمله التالى عام ١٧٨٨ «نقد العقل العملى» إلى أن المسلَّمة (الفرضية المسلَّمة) «الله» ضرورة لمسيرة المجتمع. ولكن بالرغم من ذلك أدى التحرر من سيطرة الكنيسة على البشر كنتيجة لعملية التنوير، إلى تهميش دور الدين. لقد احتل الإنسان الفرد مكانة الله بحُسبان أنه هو الإنسان الفرد مقياس ومعيار كل شىء. لقد تمادى الإنسان فى تقدير ذاته وقدراته حتى أصبح الوثن الجديد لهذا العصر.

لم يكن فى مقدور غالبية الناس التعايش مع ما يمثله كانط من موقف اللاأدرية إزاء المعرفة واللامعرفة، بمعنى أن يتأرجح ما يتعلق بالموقف الفلسفى والدينى، أى أن يحيا وكأن الله موجود دون أن يملك دليلاً علميا على هذا الوجود؛ ولذا كان

---

(٢) Kuschel (١٩٩٨).

(٣) لقد قام القيصر فريدريك هذا بالتفاوض عام ١٧٧٥ مع ألف «عائلة محمدية» ليستوطنوا بروسيا الغربية، ويقيم هو لهم فيها بيوتا وينشئ لهم بها المساجد (جاء هذا فى خطابه إلى ڤولتير فى ١٣ من أغسطس). فريدريك هذا كان يعى تمامًا أن صديقه ڤولتير لا يعرف عن محمد أكثر من معرفته عن إمبراطور الصين (خطاب ١٠/ ١/ ١٧٧٦). لقد اعترف ڤولتير فى خطاب منه إلى فريدريك فى ديسمبر عام ١٧٤٠ أن «محمدا لم يأت بفعل الخيانة الذى يستخدمه ڤولتير موضوعا لهذه المسرحية» (ماهومت)، ويعتذر عن جهله بالتاريخ وعبثه به بمقولة يشيب لها الولدان: «من يجرؤ على إشعال حرب فى بلده وذلك باسم الله، أوليس قادرًا على فعل أى شىء؟» فى الخطابات المتبادلة بين ڤولتير وفريدريك. Voltaire - Friedrich der Grocsse -Briefwechsel Haffmans Verlag Zurich 1992.

الفرد العادى فى القرن الثامن عشر يميل إلى الأخذ بفرضية باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢): إذا ما أخذ المرء بمبدإ الإيمان بالله، فإنه إذا تبين أن ذلك حق، فاز حينئذ بكل شىء، وإذا تبين خلافه فإنه لن يخسر شيئًا. ولكن كان من البديهى، بل منَ الضرورى، أن يؤدى القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر، قرن الإلحاد، وممثليه الأساسيين لودفيج فويرباخ (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) وشارلز داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) وكارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) وسيجموند فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩).

وفى اللحظة التى أصبح فيها الله مجرد إسقاط لرغبات البشر، أصبح المجال مهيأ لتأليه الإنسان فى صوره المختلفة، سواء كان ذلك بتأليه الجماعة فى الدولة (الماركسية، الاشتراكية، الفاشية) أو تأليه الفرد (الفردية، الليبرالية، الرأسمالية، النزعة النفسية).

ولذا أمكن لفردريش نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) أن يعلن بعد ١٠٠ عام فقط من صدور عمل كانط «العلم السعيد» ١٨٨٢ موت الله[٤]، واختفاء صورة الإله كما وردت فى المسيحية. وبهذا الإعلان مهد نيتشه للقرن العشرين المثقل بالأيديولوچيات الكثيرة المختلفة وبصراعاتها.

لقد أيقن من منطلق خبراته الخاصة ما عرفه المسلمون من قبل، وهو أن اقتصار الدين على المجال الخاص للشخص، هو أولى الخطوات للقضاء عليه والتخلص منه.

منذ تلك اللحظة عاشت الإنسانية ما لم تره من قبل وما لا مثيل له: فالحضارة الغربية هى الحضارة الأولى من نوعها التى تظن أن بإمكانها الحياة بدون الإيمان بكل ما هو مقدس[٥]، بدون إله وبدون غيبيات، وذلك عن طريق سلوكيات تتسم بالإلحاد، حتى وإن لم تؤمن نظريا بالإلحاد.

تحول الإلحاد فى المعسكر الاشتراكى إلى البديل الدينى، خاصة فى كل من ألبانيا والصين الماوية.

---

(٤) لقد أثبت نيتشه فى كتابه الأول: «Wir Furchtlosen "Die Fröhliche Wissenschaft» أن أحدث وأعظم الأحداث هو أن الله قد مات، أى أن الإيمان بإله المسيحية أصبح غير مقبول أو مصدق به، وقد أخذ يلقى بظلاله على أوروبا. انظر Nietzxbe الجزء الأول ص ٤٨٩.

(٥) لم يوضح أحد معنى ضياع «المقدس» كما فعل Rudolf Otto.

أما فى ألمانيا الديمقراطية، فلقد أثبتت إحصاءات أجريت بعد ١٠ سنوات من زوال الحكم الشيوعى عنها أن النجاح لم يحالف النظام إلا من خلال محاولته فرض العقيدة الشيوعية وتعليم الإلحاد فى المناهج الدراسية. وخير دليل على ذلك طقوس الشبيبة، فطبقا لها كان كل من يؤمن بالله يوصم بالخروج عن المجتمع، بل يُعَدّ من المهمشين(٦).

أما اليوم، فالإحصاءات تعطى صورة عن إيمان الشعب الألمانى، كما يلى: يَعُدُّ ٤٧٪ من الألمان أنفسهم لادينيين، و٩٪ يسمون أنفسهم ملحدين. ويرتفع هذا الرقم إلى ١٨٪ فى ألمانيا الشرقية. أما بالنسبة لمن يَعُدُّون أنفسهم مؤمنين فيذهب ٩٪ منهم بانتظام إلى قداس الأحد، ولا ينبغى أن نعجب إذا وجدنا ٣٢٪ من البروتستانت الألمان يؤمنون بـ«قوة عليا»، بينما ٣١٪ منهم يؤمنون بالإله الذى تدعو الكنيسة إلى الإيمان به.

إنهم بإيمانهم هذا إنما يتخلون ويبتعدون، بدون وعى، عن صورة الإله الاستشرافى (الغيبى) عن طريق الوحى الإلهى السامى، ويتجهون بتقديسهم، أيضًا بلا وعى، إلى الصورة الفلسفية للإله الواحد الذى يتجلى فى الطبيعة، وهى صورة للإله تبناها من قبل مفكرون يونانيون سبقوا ظهور الديانة المسيحية. وهذا المنطق يفسر خروج المئات من المسيحيين من الإيمان الكنسى، فلقد فقدت الكنيسة الكاثوليكية فى ألمانيا عام ١٩٩٧: ١٢٤ ألفًا من أعضائها. وهذا التطور يعود إلى ما يدور فى عقول الناس من تفكير، أكثر مما يعود إلى ضريبة الكنائس المالية.

وإذا كانت الإحصاءات قد بينت فى عام ١٩٩٦ أن ٣٩٪ فقط من الألمان ينتمون إلى الكنيسة الإنجيلية و٣٣٪ إلى الكنيسة الكاثوليكية، فإن ذلك يعنى بطبيعة الحال أن ربع تعداد السكان الألمان بلا مذهب دينى.

لقد ذكرت مجلة «دير شپيجل» فى عددها ١٥ من يونيو عام ١٩٩٢ من خلال مقالة بعنوان: «وداع الله» أن ألمانيا قد تحولت إلى بلد كافر، بها بقايا مسيحية. ولقد

---

(٦) لن تجد اختلافات بين استبيانات الناس فى ألمانيا الغربية والشرقية إلا فى مجال الدين. انظر FAZ ٢٢/٤/١٩٩٨ و١٠/١١/١٩٩٨ و٢٤/١١/١٩٩٨.

دفع ذلك رئيس الأساقفة الكاثوليك «ليهمان» إلى القول بأنه منذ بونيفاتيوس لم تشهد ألمانيا مسيحيين أقل منها اليوم.

وتُعَدُّ بعض الطرق السوقية والفجة لنشر نظريات علمية، عاملاً أساسيا فى هذا التطور. فنظرية داروين على سبيل المثال تجعل البعض يؤمن بأن كل شىء ما هو إلا نتيجة لسلسلة من التطورات تقع بمحض الصدفة، والتى يمكن إعادتها بطريقة عكسية «reverse engineering». واستناداً إلى نظرية النسبية لأينشتين، يعتقد البعض أنه لا يمكن الثقة بأى شى. أما ستيفن هاوكنج(*) فيجعلهم يعتقدون أنه لا أهمية لوجود الله لتفسير بدء الخليقة، حيث يُستبدل بذلك الـ (Big Bang). أما الوصول إلى سر الحياة والروح والوعى، فهو مسألة وقت لا غير، كما يراها رجل الشارع العادى. وستتكفل الكيمياء الحيوية وعلوم الكمبيوتر بحل هذه الألغاز.

ولا يختلف إنسان العصر الحديث، إنسان القرن الحادى والعشرين كثيراً عن سلفه إنسان القرن التاسع عشر؛ فهو كسلفه ـ وإن اختلفت حداثة وتطورات الشعارات العلمية ـ يرى ويتوقع أن يفسر الوعى من خلال معطيات مادية، وأن يتوصل إلى صيغة للعالم على أساس ميكروفيزيقى، بمقتضاها يمكن تفسير كل وجود العالم من خلال حجر بناء أساسى دون الحاجة إلى اللجوء إلى تفسيرات فلسفية.

وأعراض هذه الحالة تتمثل فى عملية الاستبعاد لكل ما هو دينى من المجال العام. فإذا كان المستشار الألمانى لم يعد مستعدا ـ وكذلك لم يعد يرغب ـ فى أداء يمين منصبه أن يذكر الله، وإذا كان الله لم يذكر فى خطابات أعياد الميلاد الألمانية الرسمية، فإن هذا ليس يدل فقط على تحول أوروبا الغربية عن المسيحية(٧)، ولكنه يدل على ما هو أعظم أثراً من ذلك، وهو تسلل ودخول نزعة مادية فظة إلى فكر ووجدان الكثير من ا لناس فى الغرب.

---

(٧) انظر Paul Schwarzenau : «عصر ما بعد المسيحية، عناصر لدين كوكبى» فى Kirste ص ٤٧٨ وما يليها. وينطلق علماء لاهوت مسيحيون آخرون، مثل John Hick و Hans Küng من عدم وجود عالم مسيحى، وأن هذا العالم لن يوجد مرة أخرى.

(*) عالم أمريكى بريطانى الأصل كسيح له كتاب مشهور عن بداية العالم (الناشر).